جمعية أمسيا مصر (التربية عن طريق الفن)
المشهرة برقم (٥٣٢٠) سنة ٢٠١٤
مديرية الشئون الإجتماعية بالجيزة

الأغنية الشعبية في مصر

أ.د. محسن سيد أحمد عيسى

لو قلت لأحد الأشخاص اليوم أنك من مُحبّي الأغاني الشعبية قد ينظر لك بغرابة، فالغناء الشعبي في أيامنا الحالية تحوّل إلى خليط من موسيقى مُضطربة وكلمات غير مفهومة تُقال بطريقة سريعة، وهذه من النعم لأنك لو تبيّنت الكلمات لسمعت الفاظ ومعاني لم يخطر في بالك أن يتم تداولها علانية وليس وضعها في إطار اغنية يتم الاستماع إليها دون معاقبة القانون.

لكن الوضع لم يكن كذلك طوال الوقت، ففي الحقيقة الغناء الشعبي كان أحد أهم روافد الفن في الأوقات السابقة، وهناك أصوات رائعة تخصصت فيه، لتقدم أغاني يمكن اعتبارها من العلامات المميزة في الغناء العربي، ولكن حالة من التدهور التدريجي تغلغلت في بناءه، ليفقد أصالته وتميزه ويصبح واقع بشع نعيش فيه.

إلى حضراتكم خريطة الغناء الشعبي في مصر

تمتلك مصر كمّاً هائلاً من التراث الغنائي والموسيقي، الذي يختلف ويتنوع وفقاً للبيئة التي خرج منها. نحاول في هذا البحث أن نرصد هذا التراث ونرسم خريطة للغناء الشعبي في مصر، من أغاني البدو وصولاً لأغاني النوبة.

(AmeSea Database – me –January- April. 2018- 0335)

أغاني البدو

يطلق البدو على مجالس الغناء اسم السامر، والسامر هو حفل من نوع خاص يتمّ فيه غناء الشعر والرقص. يصاحب الغناء آلة المقرونة وهي ألة عزف مصنوعة من بوص الغاب الفارسي، بالإضافة إلى الآلات الأخرى كالطبلة والدف.

ينقسم غناء السامر ثلاثة أقسام هي "الشتيوة، والغنيوة، والمجرودة". يبدأ السامر بالشتيوة وهي عبارة عن جملة واحدة متكونة من أربع إلى ست كلمات يتغنى الشاعر بالجزء الأول منها ومعه بعض الأفراد، ثم تردد بقية المجموعة جزءها الثاني بمصاحبة التصفيق الشديد بطريقه خاصة.

أما الغنيوة، فتلي الشتيوة مباشرة وتسمى "أغنية العلم". هي عبارة عن شطرات قصيرة قد تكون من ثلاث إلى أربع يغنيها الشاعر ثلاث مرات، تفصل بين كل واحدة منها شتيوة جديدة. عند ترديد الغنيوة تكف المجموعة عن التصفيق والحركة.

بعد انتهاء الشاعر من أغنية العلم يبدأ في إلقاء المجرودة، وهي من القصائد العربية وتشبه الأنشودة الزجلية، وقد تصل أبياتها إلى المئة.

يختلف السامر في سيناء عن السامر في مناطق البدو الأخرى نظراً لقرب البدو في سيناء من الحدود واختلاطهم ببدو فلسطين والأردن.

أغاني الصعيد

يضم الصعيد في جنوب مصر تراثاً غنائياً منفرداً وأصيلاً، يتمثل في السيرة الهلالية (سيرة بني هلال)، وهي سيرة امتدت أحداثها من نجد إلى تونس مروراً بالصعيد. ورغم مرور قرون على وقائع هذه السيرة، فإن الذاكرة الشعبية لأهل الصعيد أصرّت على إحيائها والتغني بها.

كانت السيرة قديماً تقدّم على لسان "الراوي"، وهو شاعر يرتجل المربعات ويتغنى بها، وكان يؤديها وهو يعزف على الربابة، آلة وترية يضرب عليها بالقوس. تغيّر الرواة مع الوقت، وكثيرون راحوا يحفظون السيرة عوضاً عن ارتجالها، ويؤدونها بصحبة عازف للربابة وفرقة من ضاربي الدربكة والدف والرق.

أبرز من أدى السيرة وأكسبها مكانتها هو الشاعر الراحل جابر أبو حسين. سجل السيرة بصوته في نحو تسعين حلقة إذاعية، برفقة الشاعر عبدالرحمن الأبنودي وزوجته السابقة عطيات الأبنودي.

(AmeSea Database – me –January- April. 2018- 0335)

أغاني الدلتا

الريف المصري ثري بعاداته وتقاليده ومخزونه الثقافي الشعبي، وهو ذو باع طويل في الغناء والموسيقى. تتميز أغاني الدلتا بطابعها الهادئ بعيداً عن الإيقاعات السريعة الصاخبة، حتى أن الآلات الموسيقية المستخدمة تقتصر على الناي أو العود أو الكمان.

تقوم أغاني الدلتا على القصص الشعبية، وهي حكايا منظومة في شكل شعري شعبي تتضمن أحداثاً وشخصيات مستمدة من التاريخ، أو من التراث الديني، مثل قصص الأنبياء والكرامات والمعجزات.

تمتاز الدلتا كذلك بفن المديح والابتهالات الدينية، ولا تكاد تخلو قرية من أتباع الطرق الصوفية الذين يحرصون على إقامة الحضرات بصفة دورية في منزل أحد المريدين. وأشهر من قدم الابتهالات الدينية في مصر خرجوا من الدلتا، ومنهم نصر الدين طوبار وسيد النقشبندي صاحب الابتهالات الشهيرة التي لحنها له بليغ حمدي.

أغاني القنال

لمناطق القنال المتمثلة في المدن الثلاث السويس وبورسعيد والإسماعيلية أغانٍ بنكهة الهزيمة وطعم النصر، لأنها ذاقت ويلات الحرب، كما يغلب عليها دائماً شجن البحر.

تشتهر مدن القنال بآلة "السمسمية" وهي آلة وترية شعبية تشبه في تركيبها آلة "الطنبورة" التي ظهرت مع العمال النوبيين الذين عملوا على حفر قناة السويس. طوّر أهل القنال الطنبورة وابتكروا منها السمسمية، وكانت السمسمية في فترة ما قبل التهجير تتكون غالباً من خمسة أوتار، لكن ازداد عدد أوتارها ليصل إلى اثنى عشر وتراً، وتم تزويدها بكبسولة كمكبر للصوت، حتى تستطيع الآلة مواكبة الأداء الموسيقي الراهن، ومصاحبة المغنيين فيما يؤدونه من ألحان.

أما أبرز أغاني القنال فهي ''الضمة''. إنها عبارة عن طقس شعبي غنائي ارتجالي يلتقي خلاله الناس ويرددون الغناء مصحوباً بالسمسمية والرق والطبول والدف والمثلث. تُلقب مجموعة مغني الضمة وعازفيها باسم ''الصحبجية''، ويؤدون رقصة فلكلورية بحرية تعرف باسم ''البمبوطية''.

يعدّ ''الريس زكريا'' من أشهر صحبجية الضمة. وهو أسّس فرقة ''الطنبورة'' عام ١٩٨٩ ليحافظ على تراث بورسعيد من أغاني الضمة وتجمعات الصحبجية، وشاركه ''الريس إمبابي'' و''محمد الدشناوي'' الذي أسس بعد ذلك صحبة ''ولاد البحر''. أصدرت فرقة الطنبورة العديد من الألبومات منها ''نوح الحمام'' و''أصحاب البمبوطية'' و''سمسمية بورسعيد''، وفي عام ٢٠٠٠ قرر الريس زكريا أن ينشأ ''مركز المصطبة للموسيقي الشعبية'' والذي يقدم حفلات لفرق التراث الشعبي المصري عامة.

أغاني النوبة

تقع النوبة في أقصى جنوب مصر في محافظة أسوان، ويمتاز أهلها بالطيبة. لقّبت بـــ''بلاد الذهب''، وعانى أهلها من التهجير بسبب بناء سد أسوان، وهذا ما شكّل حافزاً لهم ليحتفظوا بموروثهم الثقافي والغنائي، حتى من عاش منهم خارج دياره.

ينقسم مجتمع النوبة جماعتين ''الفاديجا'' و''الكنوز''، وكلتاهما تتحدث باللغة النوبية ''الرطان'' إلى جانب العربية. ساهمت الأغاني التراثية النوبية في استمرار اللغة النوبية بين الأجيال الجديدة، لحرص الكبار على تنظيم حفلات للأغاني ضماناً لاستمرار لغتهم الأم.

الغناء النوبي غالباً ما يكون جماعياً وتصاحبه آلة الطار، وهي عبارة عن إطار خشبي رقيق على شكل دائرة بالإضافة إلى الطنبورة وهي آلة وترية، والدف والعود والطبل. يمتاز الغناء النوبي بلحن واحد ولكن بإيقاعات مختلفة، وأبرز هذه الإيقاعات عند جماعة الفاديجا إيقاع ''الكوم باك'' وهو الإيقاع الرئيسي للرقص عند النوبيين، وإيقاع ''بحر يشاد'' وهو خاص برقصة الكف، وإيقاع ''شكّا'' وهو قريب من إيقاع الكوم باك، إلا أنه محدود الاستخدام، وإيقاع ''فندي جالينكو'' وهو خاص لرقصتين هامتين هما

"بلاّجة" و"فري". أما جماعة الكنوز فلديهم إيقاعا "الهولي هولي" و"الصفصافي" اللذان غالباً ما يصاحبان رقصة الكف، وإيقاع "السوكيو"، وهو سريع، يصاحب معظم الأغاني العاطفية.

خرج من رحم فن النوبة الأصيل مطربون وموسيقيون حقّقوا نجاحاً كبيراً، مثل "علي كوبانا" أول من أسس فرقة نوبية في مصر. طافت هذه الفرقة العالم تحصد المراكز في المهرجانات الدولية، غير أنها شاركت في الأوبرا الفرنسية بالأوركسترا الخاصة بها، وقد حصد كوبانا عضوية اتحاد الموسيقيين العالميين. ومن مغنيين النوبة المعروفين أيضاً حمزة علاء الدين، الذي لا يقل شهرة عن كوبانا، ومحمد حمام، وأحمد منيب، وأخيراً محمد منير.

والغناء الشعبي، هو الغناء الذي يتم من خلاله التعبير عن طبقات الشعب الكادحة بعيداً عن عالم الارستقراطيين والنبلاء، ومدى تدهور الغناء الشعبي لا يدلّ غير على التشوّه الاجتماعي الذي نعيشه الآن.**وحتى نعيد الحقّ لأصحابه**، سنستعرض هنا مجموعة من الأصوات الجميلة التي تخصصت في الأغاني الشعبية المصرية ليس لإجراء مقارنة "التي هي في صالحهم بالتأكيد" لكن لاستعادة ملامح ماضي جميل لا يجب أن ننساه، مع الوضع في الاعتبار أن هذا المجد الفُنّي لم يكن نتاج أصوات جميلة فقط، ولكن ايضاً كلمات وألحان مميزة صنعت الأغنية الشعبية:

محمد رشدي 1928 – 2005

(AmeSea Database – me –January- April. 2018- 0335)

بدأت مسيرة محمد رشدي الفنيّة من القمّة وذلك بأغنية" قولوا لمأذون البلد "الشهيرة، والتي لازالت معروفة حتى الآن ويتم سماعها في الأفراح والمناسبات السعيدة، وهو خريج المعهد الموسيقي للغناء الشعبي في الخمسينات.

محمد العزبي 1938 – 2013

المُغنيّ المصريّ محمد العزبي ذو خلفية موسيقية حيث كان والده موسيقياً، ولكنّه تخرّج من كلية التجارة وعمل كموظف في الجمعيّة العامة للبترول، وكان التحوّل الكبير في حياته عندما اكتشفه عزت الجاهلي، حيث انضم بعدها إلى فرقة رضا الشهيرة وأصبح مطربها وغنّى لها العديد من الأغنيات الشهيرة مثل "رنة الخلخال" و"الأقصر بلدنا"، وجاب معها العالم قبل ان ينفصل عنها عام ١٩٦٩.

محمد عبد المطلب 1910 – 1980

(AmeSea Database – me –January- April. 2018- 0335)

تتلمذَ محمد عبد المطلب على يدّ المُلحن الكبير والشهير ‘‘داود حسني’’ الذي لحّن له بعد ذلك العديد من الأغاني مثل ‘‘أنا في غرامك شفت العجايب’’، ومن الذين تأثّر بهم سيد درويش وأبو العلا محمد اساطين الغناء في هذا الوقت، ثم عمل بعد ذلك في الكورس الذي يغني خلف محمد عبد الوهاب، قبل ان يتركه ليعمل في صالة بديعة مصابني.

من أشهر اغانيه‘‘ رمضان جانا ’’والتي اشتهرت حتى أصبحت أحد الطقوس الرمضانية حتى يومنا هذا، وقال عنها ساخراً إنه تقاضى عنها ستة جنيهات، ولو اخذ جنيهاً عن كل مرة تتم إذاعة هذه الاغنية لأصبح مليونيراً.

حورية حسن 1994 – 1932

لم يكن مقتصرا الغناء الشعبيّ على الرجال فقط، بل رأينا أمثلة نسائية شهيرة مثل حورية حسن وهي مواليد مدينة طنطا، التي هجرتها في السادسة عشر من عمرها لتذهب للقاهرة بأمل قويّ أن تصبح من مطربات الإذاعة، وبعد عامين من سفرها بالفعل التحقت بالإذاعة واكتشفها المُغنيّ محمد الكحلاوي، وشاركت في ذات العام في فيلمين بالغناء فقط وهما ليلة الدخلة، وضحيت غرامي، ثم بالتمثيل في أفلام مثل عنتر ولبلب، واحبك يا حسن.

(AmeSea Database – me –January- April. 2018- 0335)

بدأت حكاية الأغنية الشعبية في موالد مصر، والليالي التي أحياها المنشدون والمدّاحون ومرددو المواويل في القرى والمراكز، ولم تعرف طريقها للتوثيق إلا في بداية ظهور الفيلم المصري، والاستعانة بموال كلما دعت الحاجة.

بعد انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وبداية فترة الانفتاح الاقتصادي المصري، في سبعينات القرن العشرين، ظهرت طبقة جديدة من الأغنياء ذوي الخلفية الأكثر قرباً من الشارع المصري، والأكثر استماعاً للأغنيات البعيدة عن التكلف، حاملين معهم الأغنية الشعبية، بعدما كانت حكراً على فئات بعينها.

حتى في موسيقى الأغنية ذاتها، طرأ تغيير في الكلمات والإيقاع، إذ تحولت من سرد قصص الحب والعشاق، وطابع الموال ورِتمِه البطيء، إلى سرد حكايات الناس وأفراحهم، مع عزف أكثر سرعة ومواكبة للتغيير. في شهيرته «زحمة يا دنيا زحمة»، يصف **أحمد عدوية** الشكل الجديد للحياة، بل ويصنع بما يتلوها من أغنيات شكلاً خاصاً به، ميّزه عمن سبقه كمحمد رشدي، الذي حملته كلمات «الخال» (عبدالرحمن الأبنودي) طابعه المائل إلى الموال المستوحى من الفولكلور الصعيدي المتوارث، بينما ابتعد عدوية عن الفولكلور تماماً.

بكلمات جديدة، وروح شغوفة، تأصّل عدوية كبداية للغناء الشعبي المتعارف عليه. ويمكن القول إن تلك النقلة بين رشدي وعدوية هي أحد أشكال الانتقال الذي شهدته مصر من الإشتراكية إلى الرأسمالية حينها. بدأ عدوية الغناء في الأحياء الشعبية كالباطنية، وغيره، ومثّل في عدد من الأفلام، مقدماً الأغنيات والموايل بمصاحبة راقصات على موسيقاه، أبرزهن سهير زكي.

في السنوات التالية، ومع استمرار بزوغ ولمعان نجم عدوية على عرش الشعبيات، ودخول فترة الثمانينات المصحوبة بالغلاء وصعوبة المعيشة، ظهرت الكلمات الأكثر حزناً والأكثر سرداً للمعاناة عن الفرح. لا يغفل عن تلك الحقبة أغنية «كتاب حياتي» **لحسن الأسمر** الذي شارك في عدد من أفلام المقاولات، ومسرحيات عدة، ليبقى دوره في مسلسل «أرابيسك» الأكثر رسوخاً.

انفصلت الأغنية الشعبية بعد ذلك عن الموال، وإن عادت إليه بين الحين والآخر، وظهر التوزيع الغربي الجديد في الأغاني المصرية، ولم تفلت منه ساحة الأغنية الشعبية، حيث تعاون حميد الشاعري، مكتشف النجوم والمقدم لهم بصور جديدة وألحان وأفكار عصرية، مع **حكيم** الذي قدم الأغنية الشعبية الراقصة السريعة، مستعيناً بتوزيع أقل شرقية.

حكيم الذي غنى مع النجم العالمي جيمس براون، وأحيا حفل توزيع جوائز نوبل عام ٢٠٠٦، كان الشكل الأكثر قبولاً من المطربين الشعبين، بين الأوساط الأكثر ابتعاداً عن الجو الشعبي.

وفي بداية الألفية كانت ظاهرة (**شعبان عبد الرحيم**) الذي غنى للبديهي والمألوف، فغفرت له عفويته ضعف صوته وكلماته، وكتبت عنه صحف عالمية بعد أغنيته الأشهر على الإطلاق «أنا بكره إسرائيل».

(AmeSea Database – me –January- April. 2018- 0335)

في فترة ما بعد الـــ ٢٠٠٠، قُسّمت الأغنيات إلى شبابية وشعبية، وسرعان ما أُعيد التقسيم وأُضيفت الأغنية ما دون الشعبية، التي لم تعد تروي الحكايات ولا القصص، وأضحى «الإفيه» الذي يلتقطه الناس مميزها كـــ «العنب»، **لعماد بعرور**، وأغاني **سعد الصغير**، وألحان مكررة يمتلكها الإيقاع في حكاوي **عبدالباسط حمودة ومحمود الليثي**، وآخرين، بعض من العودة للأغنية ذات القصة والعبرة.

وختاما (**المهرجانات**)

هو فن لم يُعرف له تاريخ في الأغنية الشعبية. ويعرّفها مقدموها على أنها تقديم شعبي على خلفية موسيقية غربية، بنغم متكرر لجملة شرقية. كانت سهولة صناعة «المهرجان» مساعدةَ له على الانتشار، ومقدمة له كواقع للأغنية الشعبية الحديثة، وواضعة مغنّيه كـــ «أوكا وأورتيجا»، والـــ «مدفعجية» في مصاف نجوم الأغنية الشعبية المعاصرين (للأسف) .

ومن ثم، فالأغانى الشعبية هى وليدة البيئة التى نبعت منها، ووليدة المخيلة التى أبدعتها بصفتها أحد أهم الإبداعات الشعبية، و لم تترك الأغانى الشعبية بابا إلا عبرت عنه، ولا مناسبة إلا ابتكرت لها أغانيها التى تناسبها.

المراجع

١- إبراهيم عبدالحافظ - دراسات فى الأدب الشعبي.

٢- أحمد الليثي - السيرة الهلالية في صعيد مصر.

٣- حامد أنور - أشكال الغناء الشعبي في الشرقية.

٤- شمس الدين الحجاجي - مولد البطل في السير الشعبية.

٥- عبدالحميد حواس - أوراق في الثقافة الشعبية.

٦- مجدي شمس الدين كتاب - الأغنية الشعبية بين الدراسات الشرقية والغربية.

٧- محمد الجوهري - مقدمة في التراث الشعبي.

٨- محي الدين شرف - النوبة حكايات وذكريات.